



شأنه وأثره: كتابنا المستفيد من هذا التراث (*)

— حمد العليان - السعودية —

ولقد استطاع أديبنا رحمه الله الوصول إليه، فمثلاً نجده يذكر في الكتاب الأول تحت اسم الصحابي سعيد بن عامر الجمعي قوله المؤرخين عنه: «سعيد بن عامر رجل اشترى الآخرة بالدنيا، وأثر الله ورسوله على ماسواهما». أما في عرض صور حياة الصحابي خباب بن الأرت في الكتاب السادس فينقل قوله علي بن أبي طالب: «رحم الله خباباً فقد أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً». وهو ينقل حديث رسول الله ﷺ عن حكيم بن حزام في ذكره لصور من حياة حكيم في الكتاب الخامس: «إن بمكة لأربعة نفر أربأ بهم عن الشرك وأرغب لهم في الإسلام، أحدهم: حكيم بن حزام».

وهو ينقل حديث رسول الله ﷺ عن زيد الخير في الكتاب الثاني: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله الأناة والعلم».

وأحياناً يستنتج ما يشتهر به الصحابي نفسه، فهو يقول عن نعيم بن مسعود في الكتاب السادس: «نعيم بن مسعود يعرف أن الحرب خدعة» حيث إن نعيماً طبق هذا المبدأ في تفريقه بين الأحزاب، وبذلك صد الأقوام والمهاجمين عن المدينة.

ثم تجد في سرده لحياة الصحابي أنه يسردها بأسلوب رائع سهل، وترتيب دقيق للحوادث، مبتدئاً بصفاته الجسمية ومكانته في قومه قبل الإسلام، فهو مثلاً يقول عن البراء بن مالك في الكتاب الأول: «كان أشعث أغبر، ضئيل الجسم، معروق العظم، تقتحمه عين رائيته ثم تزور عنه ازوراراً، ولكنه مع ذلك قتل مائة من المشركين مبارزة وحده».

تناقلت الأخبار نبأ وفاة الأديب والكاظم الذي خدم الأدب الإسلامي وقدم جهداً لا يستهان به محاولة منه لصياغة التاريخ الإسلامي صياغة أدبية تعتمد على الروايات الصحيحة والموثوقة.. الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا، أستاذ اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وسوف نقتصر في حديثنا حول مآثر هذا الأديب الكبير عما كتبه عن صحابة رسول الله ﷺ، والتي تعرض فيها للجوانب المضيئة التي اشتملت عليها حياة صحابة رسول الله ﷺ، والتي أعقبها بإصدار مجموعة أخرى تحدثت عن حياة التابعين لهم برضوان.

أصدر أديبنا الكبير - تغمده الله برحمته - سبعة كتب احتوت على ملخص لصور من حياة ٥٨ صحابياً جليلاً من صحابة رسول الله ﷺ، ولم يغفل أن يذكر على غلاف كل كتاب أنه للفتيان والفتيات، فهو بهذا يمكن أن يقال عنه: إن ما كتبه هو للشبان في الدرجة الأولى، وهي أول محاولة لتقديم التاريخ الإسلامي بصفة خاصة للشبان.

ولقد نهج أديبنا نهجاً جديداً في الكتابة قد نقول: إنه لم يسبق إليه أحد؛ فتجده - رحمه الله - في كل كتاب يتعرض لمجموعة من الصعابة متناولاً كل صحابي على حدة، ذاكراً ما اشتهر به هذا الصحابي من عمل ميزه عن الآخرين من صحابة رسول الله ﷺ، وقد يكون ما اشتهر به الصحابي حديثاً قاله رسول الله ﷺ فيه، أو قوله لأحد أصحابه، أو ذكراً ذكره المؤرخون عنه.

وهذا الاستنتاج فيما يميز الصعابة بعضهم عن بعض جهد يحتاج إلى تدقيق وعناء، وبعد نظر وسعة اطلاع.

(*) جريدة الجزيرة، ٢٢ أغسطس ١٩٨٦م.

وهو يقول عن زيد بن ثابت: «وهنا أقبل على الصفوف غلام صغير لم يتم الثالثة عشرة من عمره، يتوهج ذكاء وفطنة، ويتألق نجابة وحمية، وفي يده سيف يساويه في الطول أو يزيد عنه قليلا».

حيث يصف تدافع المسلمين على الاشتراك في الجيش الإسلامي السائر إلى بدر.

وهو في عرضه لصور من حياة الصحابة يسرد فضائل الصحابي، فمثلا يقول عن عبد الرحمن بن عوف: «هو أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى يوم اختيار الخليفة بعد الفاروق، وأحد نفر الذين كانوا يفتنون في المدينة ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه حي قائم بين ظهراني المسلمين».

وهو لا يسرد الوقائع مجردة، بل تجده يستشف الدروس والعبر التي لا بد من الاستفادة منها والاعتبار بها، مذكرا الشبان بهذه النماذج الحية التي دافعت عن الإسلام، وبذلت في سبيله المهج والأرواح، مستحثا الهمم على ضرورة الاقتداء بها وتتبع آثارها.

وهو لا يكتفي بذلك فقط، بل تجده يفسر الكلمات التي يرى فيها غرابة، لما يعلم أن جيلنا يحتاج إلى تسهيل لمفردات اللغة وبيان معانيها.

وبعد أن ينتهي من عرض صور الصحابي يدفعك إلى الاستزادة من أخباره، ويذكر كتب التاريخ التي تعرضت لحياة ذلك الصحابي الجليل، مشيرا إلى الصفحة والجزء. وهو بهذا يقدم خدمة جليلة بتيسير الرجوع إلى كتب التاريخ الكبيرة الأحجام، والمتعددة الفهارس.

واننا في هذه الأيام إذ نفقده - رحمه الله - نسأل الله أن يجعل ما قدمه في ميزان أعماله، وأن يتقبل عنه، وأن يحقق له أمله حسبما ذكره في مقدمة كل كتاب من هذه الكتب القيمة، حيث ذكر - رحمه الله - بخط يده قولته: «اللهم إني أحببت صحابة نبيك محمد ﷺ أصدق الحب

وأعمقه، فهبني يوم الفرع الأكبر لأي منهم، فإنك تعلم أنني ما أحببتهم إلا فيك، يا أرحم الراحمين».

والحقيقة التي لا غبار عليها أن أدينا - رحمه الله - قد خدم فتیان وفتيات المسلمين بتقديم صور من حياة صحابة رسول الله ﷺ للاقتداء بهم، واقتفاء آثارهم، وهو لم يتبع الأسلوب التقليدي في النقل، إنما ابتكر أسلوبا سهلا ميسرا، وحاول إعطاء الصورة الحقيقية عن كل صحابي وما كتب عنه في مجلدات التاريخ وكتب الحديث.

وكفاه فخرا لو اكتفى بهذا الجهد العظيم، ولكنه تعدى ذلك إلى التابعين من هذه الأمة، فقد أصدر ستة كتب ذكر فيها ثلاثين تابعا، سلك في عرض صور من حياتهم نفس أسلوبه في الكتابة عن صحابة رسول الله ﷺ، وبدأ كل كتاب من هذه الكتب بمقدمة أيضا بخط يده قال فيها: «اللهم إني أحببت الصفوة المختارة من ثقات التابعين؛ حبا لا يفوقه إلا حبي لصحابه الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.. اللهم فهبني يوم الفرع الأكبر لأي من هؤلاء أو هؤلاء، فإنك تعلم أنني ما أحببتهم إلا فيك، يا أكرم الأكرمين».

ولقد كتب الله لهذه الكتب الانتشار، فقد طبع بعضها أكثر من ثماني مرات، وقد أدركت وزارة المعارف ورئاسة تعليم البنات في المملكة أهمية هذه الصور فقررت تدريس بعضها في مراحل التعليم المتوسط، وإنها لخطوة مباركة لكي يعرف أجيالنا شيئا عن صحابة رسول الله ﷺ وما قدموه للإسلام والمسلمين.

واننا إذ نجد الحديث عن أدينا - رحمه الله - شيقا كما كان هو نفسه عندما كان حيا بين أظهرنا، نسأل الله له الرحمة والمثوبة على ما قدمه من جهد في خدمة صحابة رسول الله ﷺ.

واننا في تعرضنا لهذه الصور إنما هو دعوة لكل شاب وشابة إلى اقتناء هذه المجموعة النادرة وقراءتها، وتفهم معانيها لما فيها من الخير والمنفعة. وبالله التوفيق ■